

الرملة ورباطاتها السبعة

في القرن الرابع الهجري قبيل الحروب الصليبية
نظام دفاع دائري

للكنور محمد عبد الرهادي شهبيرة

أستاذ التاريخ الإسلامي (سابقاً)
كلية الآداب - جامعة عين شمس

من الطبيعي أن نهتم بالرملة وهي مفتاح القدس من ناحية ومفتاح المدن الساحلية المحيطة بها على شكل دائري . ذلك أن الرملة جزء هام من فلسطين التي شغلت تفكيرنا وجهودنا منذ أكثر من عشرين سنة .

والرملة هي العاصمة الحربية الحقيقية لجند فلسطين كما كان يسمى في عهد عمر أو لإقليم فلسطين ، كما نسميه نحن العرب اليوم . أما القدس فهي العاصمة الروحية ، ومسرى الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومقر المسجد الأقصى ، والقبلة الإسلامية الأولى ، والحرم المقدس لدى عامة المسلمين .

أنشئت الرملة في عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) لتقوم بدور رئيسي في حماية الثغور والدفاع عن البلاد الساحلية . ويجب أن نذكر دائماً أن هذه المدينة كانت مصراً من أهم الأمصار الإسلامية ، وكان إنشاؤها على يد دولة واثقة من نفسها ، قادرة على تحقيق الأمن الداخلي وتحقيق الدفاع الفعال عن الساحل ، ولهذا اختار القواد الذين مصروها موقعها بعيداً عن المرتفعات القريبة منها عند « عمواس » وحرص القواد على أن يجعلوا من مكانها مكاناً يمكن أن تحتشد فيه القوة الاقتصادية دون عائق من التضاريس ، وأن تحتشد فيه الجيوش لتدافع دفاعاً فعالاً عن الساحل القريب .

وقد كانت الرملة ورباطات الساحل الواقعة في غربها وحدة متكاملة من وحدات الدفاع واقعة في منطقة السهول الساحلية . فكانت الرملة قاعدة خلفية مركزية

بالنسبة لمدن الساحل السبع الواقعة أمامها ، وكان إنشاؤها عبارة عن تمهيق لخطوط الدفاع الساحلى ، مع تركيز هذه الخطوط عند نقطة مركزية خلفية ، أكفأ من القدس على الدفاع والهجوم .

أما إسم الرملة فالراجح أنه مشتق من ظاهرة مناخية ، هي ظاهرة تحول التربة إلى رمل ناعم في الصيف ، بسبب جفاف الجو بحيث لا يوجد في هذا الفصل ماء يجرى ولا خضرة مؤنسة إلا في قمم النخيل وشجر التين ، ولا يوجد فيها في الصيف إلا ماء الآبار البعيدة العور وهو ماء يعيل إلى اللوحة غير أنه شراب ، ولهذا يدخر الناس ماء الشتاء في صهاريج لهم لشراهم في الصيف . ومثل هذه التربة تعتبر أصلح الأراضي لإنبات التين ، ولهذا اشتهرت الرملة بهذه الثمار حتى قرر القدماء أنه لم يكن يوجد أفضل منه تين في ديار الإسلام وكان يسمى لسبب ما بتين دمشق . كما يسمى تين العامرية بتين سيدى جابر ، أما في الشتاء فإن النظر يتغير عندما ينزل المطر فيحول الرمل الناعم إلى بحيرة من الوحل ذات لون رملى ، وتبت عندئذ الزروع وخاصة القمح ، وقد اشتهر قمح هذه المنطقة واشتهر كذلك خبزها بالبياض وجودة الصنعة ، وكان محصول القمح يكفي كل المنطقة ، وكان يصدر إلى مصر .

وإلى جانب هذه الثروة الزراعية توفر للرملة ثراء تجارى صناعى ، فقد كان فيها طبقة من تجار الأقمشة ينزلون في حى خاص بهم حول الجامع الكبير ، وكان من عاداتهم في القرن الرابع الهجرى أن يركبوا حميراً من مصر ، وأن يتأقوا في اختيارها وفي اتخاذ السروج لها صنناً بالخيول التي كانت لا تستعمل إلا للأغراض الحربية .

في هذه المنطقة الرملية الخصبه قامت مدينة كبيرة ذات جامع أنعم من جامع دمشق الأموى مع أن مسجد دمشق كان فخماً وكان ثانى مساجد الإسلام اتساعاً وجبالاً ، وبنيت لجامع الرملة مأذنة جميلة وكان محرابه أكبر محراب معروف ، ومنبره أجمل منبر في ديار الإسلام كلها على الإطلاق في رأى للقدسى الجغرافى العربى . أما عمائر المدينة فكانت مبنية بالحجر والآجر على السواء ، وامتد العمران امتداداً كبيراً ، فكان للرملة إثني عشر باباً بعدد الطرق التي تخرج من المدينة نحو الداخل ونحو الثغور البحرية على الساحل ، ومنها درب يافا المار بمدينة « يازور » ودرب عسقلان ، وهذه الدروب الإثني عشر هي التي تصور نظام الدفاع المركزى

الدائرى . وإنما سميت الطرق دروباً لإبراز معنى الجهاد ، فكان شأن هذه الدروب المؤدية إلى ثغور البحر شأن الدروب التي كان يجوزها الغزاة المجاهدون المرابطون للوصول إلى أرض العدو عبر جبال الطوروس . ومن الطبيعي أن يكون العمران على قدر الطرق ، ولهذا يقول المقدسى : إن مباني المدينة كانت فخمة ، وشوارعها واسعة ، ومساحتها فسيحة ، وحماماتها طيبة ، وفنادقها جميلة ، وتجارها واسعة وأثنية . ونقول نحن : إن المدينة كانت تمثل قوة الدولة في عهد بنى أمية واليهود التالية بها وجمالاً وسحرآ ورغد عيش لأنها كانت العاصمة لإقليم فلسطين . وكان للمدينة طابع خاص سجله المقدسى فأشاد بكرم الناس وسماحتهم وطيب عيشهم . ولم يجد فيهم عيباً إلا عيباً واحداً هو قلة حظهم من العلم في القرن الرابع الهجرى . وكان عدد السكان كبيراً من غير شك بسبب ما ذكرنا من ثراء المدينة ورواج تجارتها وصناعتها ، وبسبب آخر هو اندفاع الهجرة الحربية نحو المراكز الإستراتيجية على شكل متطوعين وعلى شكل رباطات رسمية . وقد أدى عامل الجهاد إلى أن أكسب جامع الرملة قداسة كقداسة المساجد الأولى في الأمصار الإسلامية الأولى كجامع الكوفة ، والبصرة والفسطاط ودمشق ، بل يقرر المقدسى أن الرملة كانت في أيامه أكثر عمراناً من بغداد نفسها .

كانت الرملة ورباطاتها الساحلية السبعة جزءاً من نظام الدفاع الساحلى الذى أقامه عمر بن الخطاب للدفاع عن الشام (بدلول الإسم القديم) من غزاة إلى أنظمة ، وقد استمر هذا النظام قائماً واستمرت العناية به قائمة إلى القرن الرابع الهجرى ، وتلك حقيقة يجب الانتباه إلى أهميتها ، لأنها تدل على أن هذه السواحل ظلت قائمة قياماً فعالاً بواجب الدفاع إلى أن اغتصبها الفرنج الصليبيون في نهاية القرن الخامس الهجرى .

ويقرر المقدسى أن الرملة كانت عاصمة فلسطين ، وأنها كانت نقطة خلفية لسبعة رباطات ساحلية ، وأن العرف جرى بقاء أسرى المسلمين فيها ، وأن نظام الدفاع كان يقوم على أساس استعمال شارات النار فوق الأبراج لحشد قوات المنطقة عند قيام أى خطر .

* * *

ولكى نشرح نظام الدفاع يجب أن نتخيل المنطقة تخيلاً كاريكاتورياً ، ولنتصور

على هذا الأساس أن الرملة كانت مركز قطاع من دائرة ، وطول القطاع الدائري نحو ٥٠ كيلومتراً ، وطول القطر بين المركز وخط القطاع نحواً من ٢٠ إلى ٣٠ كيلومتراً ، والمطلوب هو أن تدافع قاعدة الرملة المركزية عن القوس الساحلي (أنظر الخريطة التوضيحية المرفقة وهي تمثل نظام الدفاع الدائري) ، فأقيمت على الساحل على أبعاد متساوية تقريباً من الرملة ستة رباطات بين كل رباط والآخر نحو ١٠ كيلومترات ، وقد روعي في اختيار هذه المسافات أن يكون من الممكن الاتصال بالعين المجردة بين كل رباط ورباط عن طريق النيران . أما الرباطات السبعة فهي : (١) غزة وميماص (٢) عسقلان (٣) أزودود وماحوز أزودود (٤) بيني وماحوز بيني (٥) يافا (٦) أرسوف (٧) قيصرية .

لكننا يجب أن ننبه إلى أن القوس المرسوم حول الرملة يتفرطح ويتباعد في طرفيه الشمالي والجنوبي عند قيصرية وغزة .

وليتبدىء من الجنوب نحو الشمال في ذكر هذه الرباطات من غزة إلى قيصرية .

١ — غزة وميماص :

أما غزة فإنها تقع على مسافة قريبة من الساحل لا على الساحل نفسه ، ويتركز الدفاع عنها في ميماص الواقعة على ساحلها ، وهي ميناء غزة وقلعتها ، ويظهر أن الوضع قد اختلف اليوم ، وأن غزة اندثرت وحلت محل قلعة ميماص وحملت إسمها معها لأن الذين زاروا غزة تحدثوا أمامي عن كورنيشها وما عليه من فنادق ساحلية وتحدثوا عن شارع طويل متفرع من الكورنيش إلى أقصى المدينة . وكانت غزة رباطاً بحسب المقدسي ، ومعنى هذا أنها كانت محصنة شأنها شأن ميماص . وكانت الرباط الرئيسي بالنسبة لرباط ميماص .

ولغزة قداسة اكتسبتها من حياة الرباط ومن قداسة الجهاد . ومن ذكريات دينية قديمة : ففيها فيما قيل ولد النبي سليمان وولد الإمام الشافعي ، وفيها دفن هاشم ابن عبد مناف جد رسولنا الكريم ، وفي أسواقها في الجاهلية تاجر عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين .

ولا غرابة إذن في قول المقدسى أن غزة في أيامه في القرن الرابع الهجري كانت مدينة كبيرة عامرة هامة الشأن .

أما ميباس فيقول عنها المقدسى أنها كانت مدينة صغيرة محصنة ، وتفهم من هذه العبارة أن ميباس مدينة مسورة ذات أسوار وأبراج وحصن . وكانت تتبع غزة بحسب قول المقدسى والواقع أن وظيفتهما الحربية كانت متكاملة وأن ميباس كانت جهة غزة . ثم أن طريقاً من طرقات الرملة كان ينتهى عند غزة وميباس .

٢ - عسقلان :

تقع هذه المدينة على نحو ١٢ كم شمالى غزة . وكان لها عمرانها الكبير وزراعتها المشهورة وذكرياتها الدينية وتحصيناتها .

أما من حيث العمران فإنها كانت جميلة فائقة الحسن ، ذات أسواق فخمة ، وتجارة رائجة أهمها تجارة الحرير . وكان تجار الأقمشة بها كثيرين تتركز منازلهم في الحى الذى يقع فيه الجامع . وكان هذا المسجد الجامع كبيراً كسيت أرضه بالرخام .

أما الزراعة ، فإن أشهرها الفواكه والجزير . ولا يزال هذا الساحل الشامى مشهوراً بها إلى اليوم ، فهى زراعة مستوطنة أصيلة . ثم إن المدينة اشتهرت أيضاً بشجر الجزير وهو شجر كثير الظل رخيص الثمار ، معروف بفوائده الطبية ، وكان الجزير قديماً شجرة مباركة ترمز إلى الحصب ، والبركة مقترنة بها في بعض العصور . وكان المعروف في القرن الرابع الهجري أن سيدنا إبراهيم احتقر بئراً عند إحدى شجيرات الجزير . ولا يزال نرى في ريفنا البئر عند شجرة جزير . ولكن ذبوع الطلقات قضى على مثل هذه المناظر وأنسى الناس قداستها ، ثم أن عصير الشجرة الذى يتساقط منها كلما دقت سائل نافع في العلاج .

ومن الذكريات الدينية التى شاعت في العصر الفاطمى وجود ضريح للحسين سيد الشهداء . ويكفى آخر الأمر أن تكون أية مدينة رباطاً لسكى تكسب شيئاً من قداسة الأحرام .

وقد كان الرباط يقتضى إقامة التحصينات . وكانت تحصينات عسقلان عظيمة الأهمية من حيث قوة التحصين وماتة البنيان ومن حيث عدد الحصون . ويقرر

المقدسى أنها كانت تشمل حصوناً كثيرة جيدة التحصين عجيبة البناء . ويكفى ذلك لإبراز الأهمية الإستراتيجية الكبرى المقترنة بهذه المدينة . ولا عيب في هذه المدينة إلا رداءة الماء ورداءة الميناء .

٣ — أزدود وماحوز أزدود :

على نحو عشرة كيلومترات شمالي عسقلان تقع أزدود ومينائها ماحوز أزدود ولفظ ماحوز آرامى معناه الميناء ، والشأن فيهما شأن غزة وميما . وبهذا القياس كانت أزدود قريبة من الساحل على حين كان ماحوزها عند البحر تماماً .

وقد باقنا عن طريق الصحف اليومية أن إسرائيل الدخيلة على منطقتنا تعيد إنشاء ميناء أزدود (أى ماحوزها) الذى اندثر هو وتحصيناته .

٤ — يبنى وماجوز يبنى :

ونلاحظ نفس الازدواج الذى رأيناه في غزة وفي أزدود في حالة يبنى وماحوز يبنى . ويدل نص البلاذرى الخاص بالتحصينات الساحلية كما يدل نص المقدسى العام الشامل لكل الرباطات التابعة لمدينة الرملة على أن التحصين يكون مزدوجاً شاملاً للمدينة الداخلية وللمدينة الساحلية وأن يكون الرباط عند الساحل وأن تكون المدينة الداخلية ورءاً مساعداً يحمى الرباط ويدعم صلته بداخل البلاد .

٥ — يافا :

كانت يافا كما يقرر المقدسى ميناء مدينة الرملة . فإذا كانت الرملة العاصمة الحربية والإدارية لجند فلسطين من الشام بالمعنى القديم فإن مدينة يافا تعتبر الميناء الأكبر لإقليم فلسطين . وفعلما يقرر المقدس ، حسن الميناء وصلاحيته .

والمدينة كما يصورها المقدسى تبدو في صورة أنيقة هي الصورة الجميلة لكل المدن العربية القديمة . تبدأ المدينة بسور محيط بها ، وكان سور يافا محيط بها من جميع الجهات ، وله أبواب منها باب يفتح على البحر مصنوع من الحديد ، لأنه الباب الأهم ، على حين كانت الأبواب الأخرى مقواة بالحديد فقط ، ولم يورد المقدس شيئاً غير ذلك عن السور ولكن التقاليد الثمارة في أصول التحصينات القديمة الإسلامية تقضى

أولاً بأن يكون للسور أبراج على أبعاد مقدرة بحيث تحمى الأبراج جدار السور كله بضرب السهام ، وثانياً بأن يكون الاتصال بين الأبراج ممكناً عند قمة السور بطريق عال في أعلى السور على نحو الطريق العالى الموصل بين بأبى الفتوح والنصر الباقي بالقاهرة إلى اليوم . وثالثاً بأن يوجد خارج السور خندق يصعب على العدو اجتيازه لكي يتقدم نحو السور .

وفي داخل المدينة في مكان ما منها — يختلف باختلاف تضاريس المدينة يوجد الحصن ، ويذكر المقدسى أنه كان للمدينة حصن يشرف عليها بعلوه ، على نحو إشراف قلعة القاهرة عليها أو على نحو إشراف قلعة حلب عليها .

وكذلك اختير لمسجد المدينة مكان مرتفع قرب البحر فكان المسجد ظاهراً مشرفاً على البحر .

فإذا نظر الناظر إلى المدينة من خارجها رأى السور ذا الأبراج الشاغحة ورأى حصن المدينة ومسجدها .

أما الريف المحيط بالمدينة فهو سهل يحمل إسم سهل يافا ، وكان ذا خصب وصفه المقدسى بأنه كان مضرب الأمثال .

وعندها أقامت الدولة الدخيلة مدينة تل أبيب .

٦ — أرسوف :

تقع أرسوف في شمالي يافا على نحو ١٢ كيلو متر . وكانت رباطاً ذا تحصينات قوية ولم يذكر المقدسى غير ذلك ، غير أننا يجب أن نفترض وجود ما يوجد عادة في الرباطات من التحصينات والأبراج .

٧ — قيصرية :

تعتبر قيصرية من مدن الساحل الفلسطيني التابع لجنود فلسطين ، وهي رباط ومدينة لها سور قوى محصن ، وبجانبتها أرباض ذات حيوية محاطة بأسوار خاصة للدفاع عن كل ريبض ، ومع ذلك فإن المقدسى لم يذكرها ضمن الرباطات المتصلة بالرملة عاصمة فلسطين حريباً وإدارياً . ونحس أن الأمر يحتاج إلى تمثيل .

والتمثيل هو أن قيصرية بعيدة بعض الشيء عن القوس الدائرى المحيط بالرملة لأن القوس عندها يتفرج ويتجه نحو الشمال ، وكذلك الأمر بالنسبة لغزة — مماس في جنوب القوس الساحلى . أما جميع الرباطات الأخرى الخمسة التابعة للدولة فإنها تقع على مسافات متساوية منها .

ثم إن المقدسى لا يقصد إلى ذكر جميع رباطات الساحل ، وإنما يقصد فقط شيئاً دقيقاً ، وهو مركز الرملة والرباطات الخمسة التى تقع على مسافات متساوية منها على أساس أن الرملة ورباطاتها القريبة وحدة استراتيجية دفاعية قائمة بذاتها . وإذن فنحن أمام مجموعة معينة من الرباطات ، هى : عسقلان ، وأزدود ، وبينى ، ويافا ، وأرسوف . وكلها تحيط بالرملة باعتبارها المركز الذى يقع على مسافة واحدة تقريباً من هذه الرباطات الخمسة .

كيفية الاتصال بين الرباطات والقاعدة الخلقية :

يقضى فن الحرب بضرورة الاتصال السريع بين نقط الدفاع ، وقد استطاع العرب منذ حروب الفتح أن يستغلوا عامل السرعة ، وأن يحرصوا على تبليغ كل إنذار بالخطر وبطلبات النجدة ، ولم يجدوا أسرع من سرعة الضوء وذلك باتخاذ أبراج عالية توقد فوقها النيران فى حالة الإنذار وطلب النجدة . وهذا هو ما يقرره البلاذرى نقلاً عن شاهدها الفتح الأولى وعمن عاصروا التنظيم الأول للدفاع عن السواحل ، ثم ظلت هذه الطريقة مستعملة إلى القرن الرابع الهجرى على الأقل بحسب رواية المقدسى .

حصنان بين الرملة وكل رباط ساحلى :

أما المسافة الواقعة بين الرملة ورباطاتها الساحلية الخمس فكانت مقسمة إلى اثلاث عند كل منها برج ، وقد أشرنا إليها فى خريطتنا دون ذكر أممائها لكيلا نطغى على الفكرة الأساسية .

أبراج المراقبة :

لابد لكل رباط من برج ، ويكون البرج عادة متصلاً بحصن من الحصون ، ولانعتقد أن المآذن اتخذت لتحل محل الأبراج ، أو أنها استعملت للدفاع ، فإذا كانت الرباطات تعتمد كما رأينا على مسافة ٥ كيلو متراً تقريباً ، فإن متوسط المسافة

بين كل برج وآخر هي عشرة كيلومترات . وقد يحتاج الأمر بحسب التضاريس السانعة من الرؤية إلى إنشاء أبراج أخرى بين الرباطات ، ليسهل الاتصال بينها عند الضرورة .

التشكيل الاستراتيجي الدائري :

يدل النظر إلى الخريطة على كيفية توزيع الأبراج على الساحل الفلسطيني في هذه المنطقة ، كما يدل على أنصاف الأقطار الواصلة بين كل رباط وبين مركز الرملة ، وتقرح أن نسمى مثل هذا النظام بالنظام الاستراتيجي الدائري . ويدخل ضمن هذا النظام الطريق الساحلي الواصل بين الرباطات الساحلية المختلفة ، لكي يستطيع بعضها أن يتعاون مع البعض الآخر .

هل كان مثل هذا النوع من الدفاع عاماً في الشام ؟

رأينا أننا أمام وحدة دفاعية قد يكون من الممكن أن تتكرر على طول السواحل الشامية من غزة إلى انطاكية بحسب حدود الشام القديمة .

نحن نميل إلى تعميم القضية لأنه لا يوجد قط ما يبرر اعتبار نظام الرملة الدائري برباطها التابعة لها نظاماً استثنائياً ولكن التعميم دون وجود نص واضح صريح إنما يرتفع إلى مستوى الترجيح فقط دون اليقين . وهنا مكان لمزيد من الدراسة .

وإذا رجعنا إلى أول نظام وضع للدفاع الساحلي وجدنا أن النظام الذي كان متبعاً أيام الراشدين جعل الساحل ولاية واحدة مستطيلة ممدودة من غزة إلى انطاكية ، ويقوم بحمايتها والى من الولاية يعرف باسم « صاحب البحر » وهو الذي يقع على عاتقه كل الدفاع الساحلي ، ثم عدلوا عن هذا النظام الأول ، وأنشأوا نظاماً ثانياً هو تقسيم السواحل بحسب أجناد الشام ، وصارت السواحل مقسمة يتبع كل قسم منها الجند الذي يقع بازائه .

أما الأجناد بحسب التقسيم الحربي في هذا العهد الأول فهي :

- | | | |
|--------------|--------------|---------------|
| ١ - فلسطين . | ٢ - الأردن . | ٣ - دمشق . |
| ٤ - حمص . | ٥ - قنسرين . | ٦ - الجزيرة . |

وصار الساحل عبارة عن وحدات استراتيجية متكررة ، والزاحج عندنا أن نظام الدفاع الدائري نظام تكرر بالنسبة لسلك الأجناد الساحلية .

أين يقع جند الأردن :

ولنلاحظ أن جند الأردن لا يذكرنا بالملسكة الأردنية الحالية في شيء ، بل كان عبارة عن المنطقة الواقعة شمالي فلسطين من الصحراء إلى البحر . ولا يوجد أدنى رابط بين التشكيلات السياسية الحاصرة المفروضة على المنطقة وبين التشكيلات الحربية السياسية القديمة .

المرابطون في الثغور البحرية :

تقرر قبل كل شيء ، أن التجنيد الإجباري أمر لم يطبق في النظم الإسلامية القديمة ، بل كانت القبائل تدخل نفسها في سلك الجندية وتكتسب بهذا الدخول منزلة إجتماعية مرموقة رعية الرزق ، ويكون رزقها بقدر عدد المقاتلين من أفرادها ، بحسب ماهو مقرر في ديوان الجند المسمى أيضاً بديوان العطاء . ثم توارث القبائل إبناً عن أب سلك الفروسية . وأشهر مثل على توارث الفروسية هو مثل أسرة ابن خلدون الحضرية ، فإنها توارث الخدمة العسكرية من أيام معاوية بن أبي سفيان (في القرن الأول الهجري) إلى أيام جد ابن خلدون (أول القرن الثامن الهجري) وهذه الطبقة العسكرية هي الجند الرسمي للدولة . أما من عداهم فإنه يستطيع أن يتطوع في الجيش أداء لحق الجهاد ، وكان عدد هؤلاء المتطوعين يمد بالآلاف في كل عام في كل جبهة .

وكان عبء الرباط يقع أولاً على الجند الرسمي . أما دور المتطوعين ، فإنه دور ثانوي وإن كانوا يساهمون في الدفاع والمهجوم مساهمة فعالة .

كان العرف الجاري منذ القرن الأول الهجري ، يقضى بأن تخصص الدولة لسلك رباط عدداً معيناً من المرابطين بقدر احتياجه . ومدى الاحتياج هو قدرة العدد المخصص للرباط على حماية الموقع بأنفسهم إلى أن يأتي الدد . ومثل هذه الرابطة هي الرابطة الدائمة للقيحة بالرباط صيفاً وشتاء .

أما في الصيف فإن الدولة تحرص على أن تضيف إلى الرابطة الدائمة المذكورة آنفاً جنداً رسمياً من « جند الديوان » بأصنافهم المختلفة من : طوابع ، وبعوث ،

ونذبة ، تدعماً لقوة الرباطات في هذا الفصل الوحيد الصالح للملاحاة والأعمال البحرية .
أما في فصل الشتاء ، فإنه فصل لا تقوم فيه الحروب إلا نادراً ، فلا تحتاج
الرباطات فيه إلى تدعيم .

ونعمة مدد آخر يدعم الدفاع الساحلى ، وهو مدد مؤلف من المتطوعين الذين
يؤدون حق الجهاد تعبداً ، ومثال ذلك المقدسى نفسه ، فإنه لم يكن جندياً بل كان
تاجراً عالماً رحالة ، ولكنه شارك في الجهاد أحياناً قاصداً التعبد ، فشارك في الرباط
وغزاه مع الغزاة . ولم نزل إلى وقت قريب ندعو في خطب الجمعة للغزاة الذين
يحمون الحدود ويدافعون عن الدول الإسلامية . على أساس أن الغزو هو عملية
دفاعية سواء كانت رباطاً أم هجوماً ، لا على أساس النهب والتخريب .

الخلاصة :

١ — تبين هذه الدراسة تشكيل وحدة من وحدات الدفاع قاعة بوظيفة معينة
بحسب وصف الجغرافى العربى المقدسى ، وقد اخترنا هذا الجغرافى بالذات لأنه كتب
كتابه قبيل الحروب الصليبية ، وصور التنظيمات الحربية قبل دخول الصليبيين إلى
الشام (بالدلول القديم) .

٢ — يرجع أصل هذا النظام إلى القرن الأول ، وقد وصفته أنا ، في كتاب
وبحث ، في هذا القرن معتمداً على البلاذرى خاصة ، ثم لم أحدد مدى استمراره إلى
أن وقعت على المقدسى فعرفت أن النظام الدفاعى الساحلى المبتدع في القرن الأول ظل باقياً
ثلاثة قرون ونصف قرن إلى العهد الفاطمى وإلى غزو الفرنج الصليبيين للشام .

٣ — يدل بقاء هذا النظام على أن فكرة الجهاد ظلت قاعة ، وظلت تتمتع
على مر العصور ، وكذلك تحسنت فكرة الجهاد في اختيار الرملة عاصمة ،
وفى إنشاء الطرق المؤدية إليها أو الخارجة منها . ثم تحسنت أيضاً فى تركيز العمران
فى كل قواعد الرباط لتتكون هذه القواعد أقوى على القيام بدورها الدفاعى .

٤ — وفى ضوء هذه الدراسة ، نفهم أهمية انسحاب القائد الإنجليزى «جلوب»
قائد الجيوش الأردنية من اللد والرملة فى حرب ١٩٤٨ ، مع أن هذه الدراسة تبين
أن الرملة هى مفصلة أروحة مكونة من سواحل فلسطين .

ولم يكن « جلوب » يجهل قيمة الرملة . فاشتهر بالذكاء والقدرة على التخطيط .
ومن واجبتنا اليوم أن نقدر قيمة هذه المدينة ، وأن نرفع قيمتها الاستراتيجية
على قيمة القدس من الناحية الحربية .

محجر عبر الراهدي بعبيره

خريطة كاريكاتورية لنظام الاستراتيجية الدائرية حول الرملة :

